

العَفْلة

عناصر الموضوع

٣٤٠	مفهوم العفلة
٣٤١	العفلة في الاستعمال القرآني
٣٤٢	الألفاظ ذات الصلة
٣٤٤	نفي العفلة عن الله سبحانه
٣٤٦	أنواع العفلة
٣٥٥	إسناد العفلة للرسول الكريم
٣٥٨	أسباب العفلة
٣٦٣	الآثار المترتبة على العفلة
٣٦٦	منهج القرآن الكريم في علاج العفلة

مفهوم الغفلة

أولاً: المعنى اللغوي:

«الغين والفاء واللام، أصل صحيح يدل على ترك الشيء سهواً، وربما كان عن عمد»^(١). وعلى هذا فإن الغفلة تعني في اللغة: الترك والسهو، فيقال: «عَفَلَ عَنْهُ يَغْفُلُ غُفُولًا وَعَفْلَةً، وَأَغْفَلَهُ عَنْهُ غَيْرُهُ وَأَغْفَلَهُ: تركه وسها عنه»^(٢). وقال الراغب الأصفهاني: «وأرض غفلٌ: لا منار بها، ورجل غفلٌ: لم تسمه التجارب، وإغفال الكتاب تركه غير معجم»^(٣). ويتضح مما سبق أن مادة غفل تدور حول معنى: ترك الشيء سهواً، وإذا أضيفت إليها الهمزة لتصبح أغفل، فإنها تكون بمعنى ترك الشيء عمداً.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الراغب الأصفهاني بأنها: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ»^(٤). وعرفها الجرجاني بأنها: «متابعة النفس على ما تشتهي»^(٥)، ثم ذكر تعريفاً ثانياً لأحد السلف الصالح، بقوله: «الغفلة: إبطال الوقت بالبطالة»^(٦). وعرفها المناوي بأنها: «فقد الشعور بما حقه أن يشعر به»^(٧).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/٣٨٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١/٤٩٧.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٠٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) التعريفات، الجرجاني ص ١٦٢.

(٦) المصدر السابق.

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٥٢.

الغفلة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غفل) في القرآن الكريم (٣٥) مرة^(١).
والصيغ التي وردت، هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿وَلَا تُفِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]	١٨	الفعل الماضي
﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَو تَفْقَلُوتَ عَن أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]	١	الفعل المضارع
﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]	٢٨	اسم الفاعل
﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]	٥	مصدر

وجاءت الغفلة في القرآن بمعناها في اللغة، وهي مصدر غفل، أي: ترك الشيء سهواً، وربما كان عن عمد^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٠٣.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/٣٨٦.

الذكر لغة:

«ضد النسيان، ذَكَرْتُ الشَّيْءَ أَذْكُرُهُ ذِكْرًا وَذُكْرًا، وَهُوَ مِنِّي عَلَى ذِكْرٍ وَعَلَى ذُكْرٍ، وَالضَّمُّ أَعْلَى، وَذَكَرْتَهُ ذِكْرًا حَسَنًا. وَذُكِّرْتُكَ اللَّهُ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا كَالْقِسْمِ»^(١).

الذكر اصطلاحًا:

استحضار الله تعالى في سكونة من السكونات، أو في حركة من الحركات.

الصلة بين الذكر والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للذكر يتبين أنه مرتبط بالغفلة، من حيث إن من ترك الذكر فقد دخل في وحل الغفلة، التي هي محل ترك معية الله تعالى ونصرتة، أما الغفلة فهي متابعة النفس على ما تشتهي، فلا يتداخل الذكر مع الغفلة، فهما نقيضان.

السمد لغة:

اللهو، فالسامد هو اللاهي؛ لأن اللاهي يمضي في أمره غير معرج ولا متمكث^(٢).

السمد اصطلاحًا:

لهو يعترض من يمضي في طريقه غير مترث ولا عالم بما يريد، ولا ما سيحل له.

الصلة بين السمد والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للسمد تبين أنه يفيد اللهو بسبب عدم معرفة الواقع، وعدم معرفة عواقب الأمور، أما الغفلة فقد تكون عن إدراك أو نسيان، أو حالة متوسطة بينهما، وعلى هذا فإن الغفلة أشمل من السمد.

(١) جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/٦٩٤.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/١٠٠.

نفي الغفلة عن الله سبحانه

نزه الله تعالى نفسه الكريمة عن الغفلة في كتابه، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولاً: حفظ الله لأعمال العباد:

ورد في القرآن الكريم ما فيه تنزيه لله تعالى عن غفلة أعمال العباد في الدنيا، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّا إِتْرَاهِعَ وَإِسْتَعِيبَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَنْتُمْ أَحْلَمُ أَمِ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

فقد زعمت اليهود والنصارى أن هؤلاء الأنبياء -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- كانوا هودًا أو نصارى، فيخاطب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ ليقول لهم: هل أنتم أعلم بهؤلاء الأنبياء أم الله تعالى المنزه عن كل نقص. ثم تبين الآية الكريمة -بصيغة الاستفهام التقريرية- أنه ليس هناك أظلم ممن كتم الإسلام وهو يعلم أنه دين الله تعالى، وكتم محمدًا صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاليهود والنصارى يجدون ذلك مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل،

ومع ذلك يتبعون الأهواء^(١)، وجاءت الفاصلة في الآية الكريمة بالنفي المحض للغفلة في حق الذات العلية المنزهة عن أية منقصة، ولعل السبب في التذليل بنفي الغفلة عن عملهم أنهم لم يكتفوا بالقول والكتم في القلب؛ بل إن ذلك الافتراء منهم تعدى إلى جوارحهم، والله أعلم.

وقد وردت آية كريمة تبين أن الله تعالى قد جعل درجات لعمل الخلق، وأنه ليس بغافل عنهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

والمعنى: إن الآية السابقة بينت أن الله تعالى لا يهلك أمة بظلم فعلته وهم غافلون، وليس ربك الله المالك المتصرف في شؤون خلقه بغافلٍ عما يعمل خلقه من الثقلين: الإنس والجن، فيجزى من استحق النار بالنار، ويشيب من استحق الجنة بالجنة رحمةً منه -تبارك وتعالى-، والدليل على أن الجن لهم ثواب وعقاب الإنس نفسه هو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَيُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُمْ وَهُمْ لَا يظلمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٨-١٩]^(٢).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، ٢٤٦/١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وقد وردت في سياق شهادة هؤلاء اليهود في عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الميثاق الذي أخذ على أسلافهم، تأنيباً لهم على تضييع أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرون بحكمها، ثم هم أمام هذا العهد الموثق بالإيمان (الميثاق) يتقضونه بطريقة سيئة، ولا يلتزمون بأي من بنوده، وليس الأمر إلى هذا الحد، بل إنهم يعلقون هذا الإخلال بأنه -زعمًا- منهم -حكم التوراة، والله تعالى يسألهم؛ تأنيباً لضمائرهم: أفتؤمنون ببعض التوراة، وتكفرون بالبعض الآخر، فتؤمنون بمفاداة الأسرى التي في التوراة، ولكن في التوراة أيضاً عدم القتل لأنفسهم، وعدم الإخراج من الديار، من يشرك بالله تعالى، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض من عرض الدنيا، فهذا كله يكفر اليهود رغم أنه في التوراة أيضاً، وهم يعلمون ذلك^(٢).

ويبين الله تعالى أن من يفعل فعلة بني إسرائيل القدامى، كما فعل اليهود في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حينما غدروا ونكثوا عهودهم، فإن لهم عقوبة الخزي في الحياة الدنيا، كإخراج بني النضير إلى الشام، وقتل بني قريظة، وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، والأمر الأصعب هو أن

وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، حيث قرأ ابن عامر وحده: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على الخطاب، وقرأ الباقون: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وحجة كافة القراء عدا ابن عامر أن الآية السابقة في سياق الغيبة^(١).

ثانياً: توفية الجزاء من الله لعباده:

وقد ورد في القرآن الكريم ما يثبت أن الله تعالى يوفي الجزاء لعباده على جميع الأعمال خيرا وشرا، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمُ وَنُحْرُوجُنَّ قَرِيبًا مِّنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ نَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمُ اسْتَرْيَ تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فإن هذه الآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، حيث أخذ الله عليهم العهد الموثق بالإيمان ألا يسفك بعضهم دماء بعض، وألا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، ثم أقرروا على أنفسهم، وحال يهود عصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أنهم يشهدون على هذا الإقرار،

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٠٣/٢، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١٥٧/١.

(١) ٨٧/٧، لباب التأويل، الخازن ١٥٩/٢. انظر: حجة القراءات، ابن زنجلة ص ٢٧٢.

أنواع الغفلة

ذكر القرآن الكريم نوعين من الغفلة: الغفلة الممدوحة، والغفلة المذمومة، وسوف نتناولهما بالبيان فيما يأتي:

أولاً: الغفلة الممدوحة:

الغفلة إذا أطلقت فإنها تعني تلك الصفة المذمومة التي هي السهو والنسيان وقلة من التحفظ والتذكر، لكن القرآن الكريم بين أن الطهارة والعفة هما بمثابة غفلة عن الحرام وغضب الله تعالى، كما ورد ذلك في شأن المؤمنات الطاهرات اللاتي يقع عليهن الإيذاء من الأفاكين الذين يشيعون الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وهذه الآية تأتي في سياق بيان طهارة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فبعد أن ذكرت الآية السابقة تحييب العفو والصفح من أبي بكر الصديق رضي الله عنه على مسطح؛ رجاء مغفرة الله تعالى ورحمته، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يكرمه بما أعطاه الله، وحينما قذف ابنته زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنا عائشة رضي الله عنها، وأقيم عليه حد القذف، منعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه

الذي أصابهم في الدنيا من الخزي والعقوبة لم يكن كفارة لذنوبهم ولكنهم: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ ولا يخفى على الله تعالى من أعمالهم شيء، فيجازون بأعمالهم.

ثم تستأنف الآية التالية لها بيان صفاتهم، ومن ثم حالهم، بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: اختاروا الدنيا على الآخرة؛ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: ليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله تعالى في الآخرة^(١).

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٧١/١، تفسير القرآن، السمعاني ١٠٤/١.

ومن هذه المبادئ:

١. أن يترسخ في القلوب والأذهان بأن ذلك الابتلاء هو عين الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَّكُم لِكُلِّ فِتْنَةٍ مِّنْهُمْ مَا آكَتَسَّبَ مِنَ الْإِنْمَارِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

فقد سمي من هؤلاء الذين جاؤوا بالإفك: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش^(٢).

ومع ذلك فإن هؤلاء الصحابة استمروا على إيمانهم، ويوصفون بأنهم الرعيل الأول، وهذا يعلم الأمة جميعاً أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأنه ليس بأفضل من طاعة الله تعالى فيمن عصى الله في ذلك المطيع، كما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من رموا أم المؤمنين رضي الله عنها وصفوان بن المعطل رضي الله عنه، وكما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه في التعامل الطيب الكريم مع مسطح بن أثانة بعد الخطاب القرآني: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمُوا لِيَصْفَحُوا أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]^(٣).

من عطاء الله الذي آتاه، فلما نزلت الآية الثانية والعشرون من السورة قال: بلى أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى وصل مسطح، ثم تأتي الآية التالية؛ لتبين أن من يقذف الطاهرات العفيفة كأم عبد الله عائشة رضي الله عنها فعليه لعنة في الدنيا والآخرة، ويضاف إلى اللعنة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وصفته الآية بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾.

ورغم أن هذه الآية الكريمة نزلت في حق أمنا عائشة رضي الله عنها، إلا أنها عامة في حق كل غافلة عن الفواحش، وعقاب من يقذفهن^(١)؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ابتلي هذا الابتلاء العظيم في أهل بيته؛ لترسخ في شريعتنا مبادئ الغفلة المحمودة، الدالة على سماحة الإسلام الحنيف، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يتهم في عرضه، فعائشة رضي الله عنها وزوجه، وأبوها الصديق، ومن اتهمت فيه لم يعهد عليه إلا كل خير، والصحابة رضي الله عنهم في حيرة من أمرهم، والوحي انقطع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً.

إن كل أحداث ذلك الابتلاء إنما كان لأجل ترسيخ المبادئ العامة للغفلة المحمودة، التي تظل فاعلة في كل زمان

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨١/٧، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٥٠٥٢/٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٦٥/٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١٩/١٩.

(٣) انظر: فتح البيان، صديق خان ١٨٩/٩.

وإظهار الخير، كما أن القرآن الكريم يبين أن المؤمنين بسبب سليبتهم وغفلتهم عن ذلك الدور المنوط بهم، فقد وقعوا في الحرج في أحص خصوص الدين، وهو عرض الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وهذا يعلم المؤمنين جميعًا على اختلاف أزمانهم وأماكنهم أن يقوموا بواجبهم في الدفاع عن الدين، وليس بردود الأفعال التي قد تكون ملاحقة لخيوط الشر، ومن ثم الوقوع في فخوخه.

وأما تفسير قوله تعالى: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]. فقد ذكر القرآن الكريم أن من وقفوا موقف الحديث بغير علم والتكلم باللسان دون التفكير بالقلب تجاه هذا الانتهاك الصارخ تجاه عرض الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بأنهم يذكرهم الله تعالى بآيات الكتاب المبين؛ حتى لا يعودوا لمثل الفعل الذي فعلوه، ثم تذييل الآية بأسلوب الإلهاب والإغراء لصفة الإيمان، فيقول تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم تعتبرون وتتعتظون بعظات الله تعالى، وتأتَمرون لأمره، وتنتهون عن نهيه^(٢).

فإن كنتم كذلك فلا تعودوا لما وقعتم به. وعدم الشعور الصادق بحجم مصاب المسلمين هو بحد ذاته غفلة؛ ولذلك وجد

وإن مثل هذا الخلق الرفيع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه إنما له صفة التغافل في القلب واللسان لمصلحة الدعوة الإسلامية، وهو جزء لا يتجزأ من الغفلة المحمودة.

٢. حسن الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل بيته، والمؤمنين بعضهم لبعض.

قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وهي معاتبة إلهية لأولئك المؤمنين؛ لأنهم لم يتحركوا التحرك الذي ينشر حسن الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والمؤمنين جميعًا، فلو أنهم بمجرد سماعهم لهذا الخبر أحسنوا الظن بإخوانهم كلهم خيرًا، وبيّنوا أن هذا الحدث إنما هو كذبٌ بين، وبيّن الله تعالى أن ذلك التصرف الذي كان يتوجب على المؤمنين بدهي ولا يحتاج إلى مزيد كلفة من التفكير؛ فلا يوجد أربعة شهداء، فإذا لم يوجد شهداء فمن قذف هو الكاذب^(١).

ولا شك أن هذا الأمر هو من أهم مبادئ وأسس الغفلة المحمودة، فإحقاق الحق وإبطال الباطل إنما ذلك إغفال للشر،

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢٢٥/٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/١٣٣.

على المسلمين عامة، إنما كانت بتقدير الله تعالى وعلمه؛ حتى تترسخ في الأذهان والقلوب وجوب الذب عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، ومن ثم التقدير والتبجيل والاحترام لهم في شتى المنابر، ومن أعظم أنواع الاحترام لهم السير على نهجهم، فهم السلف الصالح، وهم خير القرون، وإن اتبع هذا المنهج، والانسلاخ عن منهج الباطل والإغفال عنه، هو قمة الالتزام بشرع الله تعالى .

ثانيًا: الغفلة المذمومة:

سبقت الإشارة أن الغفلة في السياق القرآني -غالبًا- تكون مذمومة، باستثناء ما ذكر في ذلك الكلام السابق، وسيتم التركيز -إن شاء الله تعالى- فيما سيأتي على أنواع الغفلة المذمومة، وذلك كالآتي:

٣. الغفلة عن التفكير في آيات الله الكونية والشرعية.

ورد ذلك في آيات، منها: قوله تعالى:

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

والمعنى: رغم كل الآيات الكونية والشرعية التي نزلت إلى فرعون وقومه، بما من شأن أي إنسان يراها ويلمسها أن يؤمن بالله تعالى، إلا أنهم بارزوا الله تعالى بالكفر،

من الصحابة من تحرك تجاه هذا المصاب الأليم، وهذه بعض مواقف منهم:

الموقف الأول: شهادة أسامة بن زيد رضي الله عنه بأنه لم يعلم عنها إلا كل خير، فقد جاء في صحيح البخاري: (فأما أسامة فقال: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا)^(١).

الموقف الثاني: موقف الجارية بريرة، وذلك فيما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: (وقالت بريرة: إن رأيت عليها أمرًا أغمصه أكثر من أنها جاريةٌ حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن، فتأكله)^(٢).

الموقف الثالث: قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن آذاه في أهل بيته، وردة فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قال عليه السلام: (من يعذرنا في رجلٍ بلغني آذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت من أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا)^(٣).

إن كل ما حدث في هذه الحادثة الصعبة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدًا، فقال: لا نعلم إلا خيرًا، أو قال: ما علمت إلا خيرًا ١٦٧/٣، رقم ٢٦٣٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدًا، فقال: لا نعلم إلا خيرًا، أو قال: ما علمت إلا خيرًا ١٦٧/٣، رقم ٢٦٣٧.

ونكث العهود لمرات عديدة، فاستحقوا النكال، بانتقام الله تعالى منهم انتقامًا ليس كذلك الذي كان الله تعالى يؤذيهم به، بل انتقام إهلاك؛ لأنهم وصلوا إلى محض العناد، وهذا الانتقام هو الإغراق في البحر؛ بسبب أنهم كذبوا بآيات الله تعالى الشرعية والكونية، على ما لها من العظمة بما عرف من صحة نسبتها إلى الله تعالى، ودل سبحانه على أنهم كذبوا بغير شبهة عرضت لهم، بل عنادًا بقوله: ﴿وَكَاثِبًا﴾ أي: جبلةً وطبعًا عن هذه الآيات ﴿غَفِيلِينَ﴾، فحالهم بعد هذه الآيات التي نزلت، كحالهم قبلها؛ فكان هذه الآيات لم تأتهم أصلًا، فاستحقوا الأخذ بالعقاب^(١).

٤. الغفلة عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء.

ورد ذلك في آيات، منها: ما ورد في كتاب الله تعالى ما يبين أن الكفار يقتصر فهمهم على ظاهر الحياة الدنيا، وأن الآخرة ليست في حسابات هؤلاء الكفار، فهم عنها غافلون، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

فقد بين الله تعالى في الآيات السابقة أنه وعد المؤمنين بنصر الله، وأن وعد الله لا خلف فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

حقيقة هذا الوعد، وتبين هذه الآية سبب عدم علمهم بوعد الله تعالى، وهو أن «علمهم منحصرٌ في الدنيا، وأيضًا لا يعلمون الدنيا كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها»^(٢)، وهم عن الدار الآخرة غافلون غفلةً هم سببها؛ إذ إن جميع جوانب الهداية حاصلة عندهم، وفي ذكرتهم، ومع ذلك فإنهم قد آثروا أن يكونوا في غفلةٍ عن الخير؛ بدافع أهوائهم^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

ورد في تفسيرها حديث شريف، وهو ما أورده أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيسربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رأه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيسربون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رأه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْمَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٨١/٢٥.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤٣/٨.

**أَبْصُرْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوْتِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ
مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴿ [الأنبياء: ٩٧].

يا ويلنا قد كنا نغفل عن ذلك اليوم رغم أنه الحق، بل إننا كنا ظالمين لأنفسنا بمعاصينا، ووضعنا العبادة في غير مواضعها^(٣).

ومن المعلوم أن هذه الآية ذكرت في سياق بيان حكمة الله تعالى في خلقه الكافرين الذين حق عليهم الهلاك، فهم لا رجعة لهم إلى الدنيا، ثم بيان بعض علامات الساعة، ومنها يأجوج ومأجوج الذين هم من كل حذب ينسلون، فإن هذه الشواهد وغيرها مما ذكر سابقاً في الآية المذكورة يدل على مدى الغفلة التي وقع فيها أولئك الكافرون، فلم يملكوا إلا الاعتراف الصريح بغفلتهم وعدم انتباههم لكل الإشارات التحذيرية التي كانت تساق إليهم؛ لعلهم يرجعون عن ظلمهم وتجاوزهم للحدود.

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فهذه الآية توضح أن الإنسان الكافر بعد أن يرى بعضاً من أهوال يوم القيامة يخاطبه الله تعالى بقوله: «لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم -أيها الإنسان- من الأهوال والشدائد، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٤٢/١١، روح المعاني، الألوسي ٨٨/٩.

غَفْلَةٍ [مريم: ٣٩]. وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا **(وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ)** [مريم: ٣٩]^(١).

وفي رواية مسلم: (وأشار بيده إلى النار)^(٢).

وهذا التفسير يبين خطر الغفلة التي تحل على من يقضي حياته في غير الإيمان بالله، بل ولربما يكذب ويحارب هذا الغافل دين الله تعالى، فربط الغفلة بالآخرة أمر مهم؛ حتى يذكر هذا الغافل بالله تعالى، وأنه سيبعث بعد موته لهذه الدار الآخرة: إما إلى جنة أو إلى نار، وعندما يذبح الموت، ويخلد من استقر في النعيم على ما هو عليه، فلا موت لنعيمه فضلاً عن حياته، وهكذا أهل النار يخلدون فيها، فلا موت لتعذبهم فضلاً عن حياتهم.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين اقتراب الوعد الحق الذي هو القيامة، مع بيان طبيعة حال الكافرين يومئذ وتحسرهم؛ لأنهم كانوا في غفلة من ذلك اليوم، واعترافهم الواضح بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم، ومتجاوزين لكل الحدود، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة)، ٩٣/٦، رقم ٤٧٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢١٨٨/٤، ٢٨٤٩.

يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعابته، فزالت الغفلة عنك»^(١).

٥. الغفلة عن الذكر وتدبر كتاب الله تعالى.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين خطر الغفلة عن الدعاء الذي هو العبادة والذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

فلا أحد أشد ضلالة من الذي يدعو من دون الله تعالى «حجرًا لا يستجيب له إذا دعاه أبدًا، ولا ينفعهم، وتلك الحجارة التي يعبدونها غافلة عن دعاء هؤلاء الكفار، لا تعقل ولا تفهم»^(٢).

إن هذه الآية الكريمة بينت وحذرت أولئك الغافلين بأن ما يعبدون من دون الله تعالى هي أصلاً غافلة عما يدعو هؤلاء الكفار، فإنهم قد فعلوا ما ينكره العقل ابتداءً فضلاً عن عدم تلييتهم نداء ربهم، فإن هؤلاء الكفار قد دخلوا في وحل الغفلة من أوسع أبوابها، فاستحقوا أن يوصفوا بأنهم أشد الخلق ضلالةً.

٦. الغفلة عن عهد الله تعالى وميثاقه.

وقد ورد ذلك جلياً في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/٣٥٠.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب

ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَسْبَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٥﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

فإن هذه الآيات الكريمة تبين الميثاق الأول الذي أخذ على بني آدم، وهم في عالم الذر، فيقول الله تعالى: واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم حين «استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به»^(٣).

فقال الله تعالى لهم: ألسنت بربكم الذي يستحق العبادة وحده؟ فقالوا جميعاً: بلى، شهد بعضنا على بعض، فأقروه بذلك والتزموا، ثم يذكر الله تعالى عذرين باطلين لهما، الأول: القول من المقربين بوحدانية الله تعالى إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في عدم انتباه من ذلك، فهذا باطل؛ لأنهم مشهود عليهم بما أقروه وهم في عالم الذر؛ فهم مولودون على هذه الفطرة، ولا مجال لهم للتدرع بالغفلة. والعذر الآخر قول هؤلاء المقربين في عالم الذر بوحدانية الله تعالى: إنما ولدنا فوجدنا آباءنا مشركين، فاتبعنا منهاجهم، أفتهلكنا يا ربنا بإشراك من أشرك

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/٢٢٢.

فأخذوا السلاح، قال: فصفنا خلفه صفيين.
قال: ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع،
فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي صلى الله عليه
وسلم بالصف الذي يليه، والآخرين قيام
يحرصونهم، فلما سجدوا وقاموا، جلس
الآخرين، فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم
هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء
إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع، فركعوا
جميعاً، ثم رفع، فرفعوا جميعاً، ثم سجد
النبي صلى الله عليه وسلم والصف الذي
يليه، والآخرين قياماً يحرصونهم، فلما
جلس، جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم
عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله
صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة بعسفان،
ومرة بأرض بني سليم) (٢) (٣).

ومن الآية وسبب نزولها تعرف كيفية
صلاة الخوف، ويتبين أيضاً أن من أساسيات
الالتزام بالدين ألا يغفل المؤمن عن تربية
الأعداء؛ ولذا شرعت صلاة الخوف
لأهداف عظيمة، منها: اغتنام فرصة وجود

(٢) أخرجه الإمام في مسنده، ١٢٠/٢٧، رقم
١٦٥٨٠، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة،
تفريع صلاة المسافر، باب صلاة الخوف،
١١/٢، رقم ١٢٣٦، والنسائي في سننه،
كتاب صلاة الخوف، ٣/١٧٦ رقم ١٥٤٩.
قال محقق المسند: «إسناده صحيح، رجاله
ثقات، رجال الشيخين، غير أن صحابيه لم
يخرج له سوى أبي داود والنسائي».

(٣) المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد
المزيني ٤٣٤/١.

من آبائنا، واتباعنا منهاجهم على جهل منا
بالحق؟! (١).

٧. الغفلة عن تربية الأعداء.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا
كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ
طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فِإِذَا
سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ
طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ
وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ تَعَفَّلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُمْ مِثْلَةَ وَجْدَةٍ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ
تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

أخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي عن
أبي عياش الزرقى قال: (كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعسفان، فاستقبلنا
المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم
بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي صلى الله
عليه وسلم الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال
لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن
صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأنفسهم.
قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات
بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ
فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: فحضرت،
فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢١٨/٥.

من أعظم ما دل على ذلك قوله تعالى عن فرعون وجنّته: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

حيث إن هذه الآية دلت على أن غالبية الناس يغفلون عن آيات الله تعالى التي هي مدعاة للحجر والشجر أن يصدع لها من خشية الله تعالى، رغم أن قصة فرعون وبقاء جنّته خير دليل وآية على قدرة الله تعالى.

٩. الغفلة عن حسن التعامل مع الخلق.

وقد ورد ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

حيث يأمر الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يستفهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لغرض الزجر والاعتاظ: فلم هؤلاء يصدون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا سئلوا عنه، قالوا: لا نجده، كذباً منهم وصدوداً، وهم يرجون بمكة غير الإسلام؛ بل يريدون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هلاكاً؟! (٢).

والمشكلة فيهم، هي أنهم يشهدون على ذلك الصد والافتراء؛ ولذلك حسن أن تكون الخاتمة بتزيه الله تعالى عن الغفلة؛

النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المعركة، ومن ثم الفوز بالجماعة خلفه، ومن الأهداف: بيان أهمية الجماعة حتى في المعارك، ولكن في حالة الخوف، بكيفية تضمن -بعد توفيق الله تعالى- عدم ميل الأعداء على المؤمنين ميلاً واحدة، ومن هنا يتبين أن الغفلة عن تربص الأعداء مذمومة بكل المقاييس، وليس أدل على هذا من تذييل الآية بقوله: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ثم بيان أن الله تعالى أعد وهياً للكافرين عذاباً سيهينهم بإذنه تعالى (١).

إن أعداء الله تعالى قد دأبوا على النيل من الموحدين، فهم يسعون لإضعاف المؤمنين، والاجتهاد في نزع سلاح المجاهدين، الذين هم تحت راية الإمام، والذين هم يدافعون عن دين الله تعالى؛ ولذا فإن الله تعالى شرع صلاة الخوف، وبين خطر الغفلة عن السلاح؛ حتى لا يقع المسلمون فريسة سهلة للكفار.

يقول تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَفَلُوا عَن أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

٨. الغفلة عن الاعتبار من سير السابقين.

إن قصص القرآن وكذلك أمثاله وأقسامه دلت باستفاضة على وجوب الاعتاظ، وإن

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/٧١٧.

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/٤٦١.

إسناد الغفلة للرسول الكريم

تنبغي الإشارة إلى أن الغفلة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليست تلك التي يحاسب المرء عليها، أو التي هي منقصة تحل بالمرء إن وصف بها، فهي خارجة عن إرادة البشر ومعرفتهم عموماً؛ إذ إنها مرتبطة بالفطرة من جهة، وبما حدث قبل ولادته صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى.

وسنذكر - إن شاء الله - آيات الغفلة المنسوبة إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال ثلاث نقاط، وذلك فيما يأتي:

١. الغفلة قبل إرساله صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه.

وقد ورد ذلك جلياً في قوله تعالى:

﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

فإن سورة يوسف عليه السلام من أولها إلى نهايتها تتحدث عن قصة ذلك النبي الذي خلد القرآن الكريم ذكره في اسم هذه السورة، فإن هذه الآية تذكر أن الله تعالى القدوس يقص على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم على أمته أحسن القصص من خلال هذا القرآن الكريم الموحى إليه،

لأن أهل الكتاب غارقون في الغفلة، غير متبهين لما سيؤولون إليه من العناء والشدة، إن هم أصروا على إجرامهم.

الظلمات بشتى صورها؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم ملتزم بتبليغ دعوة الله تعالى بما في ذلك النور الذي يشع من القرآن الكريم، فقد وصف صلى الله عليه وسلم بأنه يرشد إلى الاستقامة^(٢).

٢. نهييه عليه السلام ومن تبعه عن الغفلة.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الله تعالى نهى سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الغفلة بشتى صورها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ تِلْكَ فِي نَفْسِكَ نَضْرِبُهَا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

حيث أمرت الآية السابقة المؤمنين كافة أن يحسنوا الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئت آياته المتلوة، وبينت أن ذلك سبب الرحمة الواسعة من الله تعالى، وتأمير هذه الآية الكريمة الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم ومن ثم جميع أمته أن يستحضروا الله تعالى في أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وأن تكون حال ذلك الاستحضار بتضرع وخيفة، وأيضًا تكون القراءة غير مجهور بها في فترة الغدو والآصال، ثم تذييل الآية بنهي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم أمته

ثم تأتي الفاصلة ببيان أن هذه القصص الفضلى في حسنها وإحكام دلائلها وعبرها، ما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليتبته إليها، أو أن يعلمها إلا بعد ذكرها في القرآن الكريم^(١)، فإن هذه الآية الكريمة تبين أن الغفلة مفهوم دقيق، يتسبب إليه كل الخلق، ولو نجا منه أحدٌ لكان الأولى بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مع التذكير بأن غفلة الرسول صلى الله عليه وسلم مما لا يحاسب عليه الخلق، ولا ينسب عيبًا. وقد بينت آية أخرى أن مما غفل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة دقائق ما ذكره القرآن الكريم قبل إنزاله؛ لبيان عجز الخلق، وأنه ما علا شأن مخلوق فإنه يبقى بحاجة إلى خالقه.

فقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وتبين هذه الآية الكريمة أن أعظم طرق الوصول إلى الله هو التمسك بذلك القرآن الكريم الذي هو روحٌ من لدن رب العالمين، فهو الهادي للتي هي أقوم، فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غافلًا عن ذلك القرآن وذلك الإسلام، ولكنه ضياء من

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١٧٤/٤.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١٧٨/٢.

والتي قبلها، والتي بعدها^(٢)، وعلى هذا فإن الآية تأمر رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم، بأن يحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء الداعين إلى الله تعالى حبس ملازمة لهم، فهم الذين لا ينفكون عن الدعاء إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، يبتغون وجه الله تعالى، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تعرض عنهم، ولو بأن تنتبه إلى غيرهم تريد زينة زائفة من هؤلاء المستكبرين الكفار^(٣).

يقول ابن عاشور: «وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا مهمهم وعنايتهم بالأمر الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية، فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا مهمهم الصور الظاهرة»^(٤).

ثم يذكر القرآن الكريم في آية قرآنية أخرى ما يحصن هؤلاء المستضعفين، وبقاءهم في حصن الدعوة، وذلك بأسلوب النهي عن طردهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدْتَهُمْ فَكَوْنُ مِنْ أَظْلَمِ أَعْيُنَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٢٩٧، باب النقول، السيوطي ص ١٣٠.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٥.

عن الغفلة، فإن ترك الذكر غفلة^(١)، والنهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن الغفلة لا يقتضي أنه صلى الله عليه وسلم قد وقع بها؛ وإنما يأتي التحذير لبيان أن القدوة الحسنة المعصوم إذا كان منهياً عن تلك الغفلة، فمن باب أولى أن تنتهوا أيها الناس عموماً عنها.
٣. نهيه عليه السلام ومن تبعه عن اتباع الغافلين.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية والتي قبلها، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: جاء المؤلف قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس وأهاليهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان، وأبا ذر، وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٦٤٧/٥.

أسباب الغفلة

سبقت الإشارة إلى أن الغفلة في عمومها مذمومة، وأنها نقيض ذكر الله تعالى، وينجم عنها كثير من المتاعب وإحلال غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه، وسنستعرض - إن شاء الله تعالى - الأسباب التي تؤدي إلى الغفلة؛ حتى يتبها لها، ويحذر منها، وهي تتلخص في سبعة أسباب:

١. الكفر.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على ذلك صراحةً، في قوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَكُمْ مَّا أَنْذِرْنَا آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦].

فقد ذكرت الآيات السابقة أن الله تعالى خاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم مقررًا أنه من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، فهو الهادي إليه بإذن ربه تعالى؛ لأن هذا الصراط المستقيم الذي هو منهاج ودين، إنما هو منزل من الله العزيز الرحيم؛ ثم تبين هذه الآية الكريمة أن هذا المنهاج المنزل من العزيز الرحيم إنما هو ليحذر العرب الذين لم يأت إليهم من ينذرهم ويحذرهم مما هم فيه من غرق في الكفر، من عبادة الأصنام والأوثان وعدم وجود شريعة الله تعالى بينهم^(١)، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة: عبارة

حيث تنهى هذه الآية الكريمة نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطرد الفقراء المسلمين الداعين إلى الله تعالى صباح مساء مبتغين وجه الله تعالى عن مجالسته، فكُلُّ له حسابه عند الله تعالى، ولست من يحاسبهم، أو يحاسب عنهم، فإن طردتهم فإنك ساعتها تكون من الظالمين^(١).

ولا شك أن هذه الألفاظ صعبة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم لمجرد أن نفسه حدثته بمجاملة سادة قريش طمعًا في إسلامهم، ومن هنا يتبين أن الغفلة باب واسع، قد يقع به خير الناس إن اجتهد في خدمة الدعوة وأعمل عقله لحظةً، وجامل من لا يستحق المجاملة، أو انفك عن يومر الداعية بملازمته من أولئك الداعين إلى الله تعالى، الغيورين على دينه؛ ولذلك فإن كلمات الآية حاسمة في وجوب الانفكاك عن أغفل الله تعالى قلبه عن ذكر الله تعالى، وكان أسير هواه، وكان أمره ضياعًا^(٢).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٧.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٦٣.

الله عليه وسلم إلى السماء لعل سيدنا جبريل عليه السلام يأتي بخبر من الله تعالى يأمر بتحويل القبلة؛ حيث إن حبها للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن عاطفياً؛ لكنه كان حباً شرعياً بعدما غيرته اليهود بأنه لجأ إلى قبلتهم، واتخذت ذلك فرصة للصد عن النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته الربانية، ولما كان هذا التوجه من القلب والجوارح فقد استجاب الله تعالى لنييه طلبه الذي لم ينطق به تأدباً منه عليه السلام، فقد كان يقلب وجهه إلى السماء، فتم تحويل القبلة، ثم بين أن أهل الكتاب يعلمون علم اليقين بأن ذلك حقٌّ من عند ربهم.

وذلت الآية الكريمة بتزيه الله تعالى عن الغفلة عما يعمل أهل الكتاب من تحريض على دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، وهذا التذليل يدل على مدى الغفلة التي يعيشها أهل الكتاب؛ فرغم أنهم يعلمون علماً لا شك فيه ولا ريب، بأن ما حدث هو من عند الله تعالى، وأن الدعوة إلى الله تعالى أصلاً هي من عند ربهم، إلا أنهم غفلوا عن معرفة ما سيؤولون إليه من غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه.

ثم تأتي الآية الكريمة لتفصل غفلتهم الكبيرة، وهي متابعة النفس لما تشتهي، فهم إن جاء إليهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بكل معجزة دالة على نبوته ما توجهوا إلى

عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد^(١)، فلما كانت تلك حالهم، وصفهم الله تعالى بأنهم غافلون غير متبهيين لسبب وجودهم، ولا لعاقبة أمرهم، وهذه الآية هي شاهدٌ على أن الكفر سبب للغفلة في عمومها، رغم أن العرب كانوا جهلة لا يعرفون، إلا أن هذه الآية تبين جانباً تأصيلياً تعريفياً، وليس الحكم على العرب بعيب عندهم فحسب، وما يدل على ذلك الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

٢. الظلم.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَىٰ تَفَلُّبًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَتَوَلَّىٰ صَافِرًا رَّضَنَهَا قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَمْلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَيْتَهُمْ مِنْ بَدٍ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَئِن الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٥].

وإن هذا الخطاب القرآني يبين أن الله تعالى قد رأى كثرة توجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الجرجاني ص ١٤٤.

القبلة نحو المسجد الحرام؛ لأنهم يعلمون -بدون معجزات- أنه صلى الله عليه وسلم على حق، ولكنهم لا يريدون التبعية له صلى الله عليه وسلم، فهم قد استغلوا توجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى القبلة نحو المسجد الأقصى ليبينوا أنه تبع لهم.

ثم تذييل الآية الكريمة ببيان أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم إن اتبع أهواءهم، فصار يبحث عما يرضيهم، رغم أن الله تعالى قد بين له صلى الله عليه وسلم كل الدلائل التي تجعله يحذر من مكرهم، فعند ذلك كله إن سار في ركبهم -وحاشاه أن يكون كذلك- يكون من الذين تجاوزوا الحدود، فوصف عندها من الظالمين، ووصف الظالمين؛ ليبين أن من يسير في ركب أهل الكتاب يكون من الظالمين، الذين غفلوا عن الحق وانصاعوا للباطل، واتبعوا ما تشتهيه أنفسهم، وإن من اتبع الغافلين كان منهم^(١).

وإن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه من الظالمين إن اتبع أهواءهم «فيه لطفٌ للسامعين، وتحذير لهم عن متابعة الهوى، فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه، ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام في سلك الراسخين في الظلم

فما ظن من ليس كذلك!؟»^(٢).

ومن هذا الخطاب القرآني يتبين أن الظلم الذي هو تجاوز للحدود رغم معرفة الحق، هو سبب مباشر من أسباب الغفلة التي هي متابعة النفس على ما تشتهيه، ويبرز ذلك عند معرفة أن الظالمين المحرضين ضد الحق حينما يوصفون بالغفلة، فقد غفلوا عن أن الله تعالى منزّه عن ذلك، فإذا فهم ذلك فعندها يكون من يتبع الباطل ظالمًا، وغارقًا في وحل الغفلة.

٣. الإعراض عن الوحي.

وقد ورد ذلك جليًا في قوله تعالى:

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَصِيرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء: ١-٣].

ويتبين من هاتين الآيتين أن الفطرة السليمة تعي حجم الغفلة التي يقع بها الخلق عندما يحذرهم الله تعالى من الحساب، وتساق الأدلة على ذلك، ويتبين أيضًا أن هذا الخطاب القرآني يعظ الناس عمومًا، فيذكرهم بما سيؤولون إليه من جزاء، وعليهم أن يتبهوا من غفلتهم وإعراضهم الذي هو حق.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/١٧٦.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/٢١٧.

أكان هذا الكسب قولاً أو فعلاً^(٢).

ومن هذه الآية الكريمة يتبين أن الإنسان إذا عاش في الدنيا محباً لها، معتقداً أنه مخلدٌ فيها، يجتهد في جمع المال والجاه فيها، فإنه يكون قد غفل عن سبب وجوده في الدنيا، وهو عبادة الله تعالى وحده، فالدنيا لا تكون خيراً إلا إذا اعتبرها الإنسان مسجداً للصالح، ومنطلقاً للخير ورضا الله تعالى، فإذا غفل الإنسان سبب وجوده فإنه يغفل ما سيؤول إليه بعد الحياة، وهو الممات، فلا يعمل له، ولا يتزود له، وحينها فإنه سيلقي الله تعالى خاوي اليدين، وعاقبة أمره ذل وهوان، وسيخسر الآخرة، وإن ظن أنه ربح الدنيا فهو أيضاً غافل؛ لأن التقوى هي السعادة وفيها راحة البال، والجميع حينها يحبه، والمتقي لله تعالى يكثر من الذكر، والذكر نقيض الغفلة، فإنه يتحصن منها.

٥. الكبر.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿سَاصِرْفٍ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:

١٤٦].

فالله تعالى بين في هذه الآية الكريمة

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٥/١٥.

وتفصل الآية التي بعدها سبب الإعراض عن الوحي وهو أنهم ما إن يأتهم شيء من القرآن محدثٌ تنزله بحسب اقتضاء الحكمة، إلا استمعوه وهم في حالة استهزاء به، فقلوبهم غافلة غير متنبهة إلى وعد الله الحق^(١).

٤. الرضا بالحياة الدنيا والركون إليها.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

والمعنى: إن الذين لا يخافون لقاء الله تعالى يوم القيامة، فهم لذلك مكذبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين الدنيا وزخارفها، راضون بها عوضاً من الآخرة، مطمئنين إليها، والذين هم عن آيات الله، وهي أدلته على وحدانيته وحججه على عباده في إخلاص العبادة له ﴿غَافِلُونَ﴾، معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلتهم عليه، ويعرفوا بها بطول ما هم عليه مقيمون، هؤلاء الذين هذه صفتهم مصيرهم إلى النار؛ لأنهم كانوا لا يتحرون الكسب الحق، سواء

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥٤/٦، الدر المشور، السيوطي ٦١٦/٥.

٦. تعطيل الحواس بعدم التفكير والتدبير والسمع والإبصار.

إن الله تعالى قد بين في كتابه العزيز أن الحواس مسؤول عنها ذلك الإنسان؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

«فلا تقل: سمعت، ولم تسمع، ولا تقل: رأيت، ولم تر، فإن الله سائلك عن ذلك كله»^(٢).

وإن المسلم يستحضر بقلبه ذكر الله، ثم يقر اللسان بمقتضى ذلك، ثم يستمع الحق ولا يستمع الباطل ولا يكذب بقوله سمع وهو لا يسمع، وكذلك لا يقول رأيت وهو لا يرى، أما إذا اتبع هواه، وعطل حواسه عن واجباتها في التعرف إلى الله وذكره، فعندها من المؤكد أنه ستحل عليه الغفلة المذمومة، التي تمحق الحسنات، وتربي السيئات بعدم انتباه ذلك المسلم إلى واجباته، واستبدال ذلك بالفجور والعصيان.

٧. صحبة الأشرار.

إن صحبة الأشرار تؤدي إلى الغفلة من أوسع أبوابها؛ فقد تؤدي بالإنسان إلى غضب الله تعالى ومن ثم عقابه.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَمَسُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ

أن المتكبرين في الأرض بالباطل، الذين يرون الحق والباطل، فيصرون على باطلهم طريقاً ومنهجاً سوف يصرفهم الله تعالى عن التفكير في آياته الكونية والشرعية وقبولها، والسبب أنهم كذبوا بهذه الآيات بنوعيتها، وتذليل الآية بأنهم غافلون مناسب لما بينته من رؤية طريقي الحق والباطل، ومع ذلك لم يتعظوا^(١).

والغفلة في هذه الآية تحتل المعنى الأشمل، وهو: متابعة النفس لما تشتهي؛ لأن الأهواء سلاح إبليس، وهي الذنوب التي قد يغفل الإنسان عن التوبة منها؛ لأنها تكون ضمن ما تشتهي نفسه، ويتابع ما تطلبه تلك النفس، فإن الإنسان قد يعرف الحق، لكن الشهوات قد تغشي قلبه عن نعمة الانصياع القلبي والقلوبي والفعلية لما يطلب الشرع منه، وهذا الأمر هو الغفلة التي قد توصل إلى التكبر في الأرض؛ لاعتقاد هذا المتكبر أنه بيده مقاليد كل شيء.

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أنها جعلت من يرى طريق الحق وما يرشد إليه، وطريق الباطل وما يوصل إليه، ومع ذلك يلتزم الباطل، فإنه يكون في صف المتكبرين، الذين غفلوا حقيقة وجودهم وما سيؤولون إليه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢٣٣١/٧.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٥٦٧/٥، معالم التنزيل، البغوي ٢٣٤/٢.

الآثار المترتبة على الغفلة

تبين من خلال الدراسة أن الغفلة في عمومها مذمومة، وأنها تكون سبباً مباشراً لغضب الله تعالى، ومن ثم عقابه.

وستركز على الآثار المترتبة على الغفلة في الدنيا والآخرة، وذلك بالاستقصاء في آيات الله تعالى، والله الموفق والمستعان.

أولاً: الآثار الدنيوية:

وردت آيات عديدة تدلل على وبال العاقبة للغافلين في الدنيا قبل الآخرة، وذلك من خلال بيان العواقب الآتية:

١. البعد عن أهل الحق فقراء كانوا أم أغنياء.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْوَةِ وَالْمَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطُلًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فقد يغفل المسلم الداعية عن بعض الجوانب المهمة من الدين، كالإعراض ولو لحظة عن أهل الحق، حتى ولو كان ذلك بسبب نصرة الدعوة، فإن الغفلة عنهم تعني ركوناً إلى العقل في جلب الناس، والدخول في مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، وقد جاء في الحديث الشريف عن مصعب بن سعد، قال: رأى سعد رضي الله عنه،

يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾
يَتَوَلَّوْنَ لِيَنِّي لَوْ أَنَّنَا خَلِيلًا ﴿٣٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي
عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا ﴿٣٩﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

أي: «ويوم يعرض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صدّه عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلاً، يعني: طريقاً إلى النجاة من عذاب الله»^(١).

ويبقى هذا الكافر الظالم يصاحبه الندم على ما فرط في جنب الله؛ فقد جاءه القرآن الكريم ودُكِّرَ بالله تعالى بما فيه الكفاية للطاعة وعدم الغفلة عنها، ومع ذلك فقد غفل عن الحق، واتبع هواه بالاستماع إلى صحبته الشريرة، فاستحق غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه في الدنيا بفضيحته ومعيشته النكدية، وفي الآخرة بالندم البالغ، ومن ثم دخول النار.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/٢٦٢.

أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟) (١).

٢. ضياع أمر الغافل.

ومعنى الآية في هذا السياق: «جعلناه غافلاً بالختم عليه، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلاً عن ذكره، كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وهم غافلون عن ذكر الله» (٢).

٣. الانتقام من الغافلين عن آيات الله في الدنيا.

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

حيث جاءت هذه الآية بعد سرد كل الآيات البيّنات الدالة على صدق سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد غرقوا في الغفلة؛ ولذلك استحققت إرادة الله تعالى بالانتقام منهم، فأغرقهم الله في البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى، والغفلة عنها (٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، ٣٦/٤، رقم ٢٨٩٦.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/٣٣٤.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود

٤. صرف الغافلين عن تدبر آيات الله تعالى والتأمل فيها.

فقد قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوا سَيْلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوا سَيْلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

حيث إن الغافلين - الذين كذبوا بآيات الله تعالى فهم المتكبرون - سيحل بهم عقاب، وهو إيجاب عدم القدرة على التفكير في آيات الله تعالى والاعتبار فيها، وسيرون الحق وما فيه من نجاة، وسيرون الباطل وما فيه من هلاك، ومع ذلك فإن أبوا إلا الانغماس في الباطل، وعميت بصيرتهم، وما عادوا يتفكرون فيما ينجيهم (٤).

٥. الغافلون سيتصفون في الدنيا بأنهم جهلة.

فقد قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

فمن يغفل عن الآخرة، يكن من الذين لا يعرفون سبب وجودهم في الحياة الدنيا، فلا يعرف نفسه حق المعرفة، ولا يفقه هؤلاء الغافلون من الحياة إلا «معاشهم، متى يفرسون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى

٢٦٦/٣.

(٤) انظر: الدر المشور، السيوطي ٣/٥٦٢.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقد تقدم الحديث عن هذه الآية، ويمكن القول: إن يوم القيامة سمي يوم الحسرة في هذه الآية؛ لأنه إذا ذبح الموت، ونودي بالخلود لأهل النار كما الجنة، عندها ينتهي أي أمل في النجاة عند أهل النار، فهي الحسرة التي لا تعدلها حسرة فهو بالفعل «يوم الحسرة المُعدَّة للجزاء بحيث لا يمكن فيها التلافي والتدارك على ما فات سوى الحسرة والندامة غير المفيدة؛ إذ قضي الأمر ونزل العذاب، وقد مضى زمان امتثال المأمور به»^(٤).

ومن هذه الآية يتبين أن من آثار الغفلة في الآخرة الحسرة الكبيرة؛ لعلمهم اليقيني بأنهم مخلدون في النار.

يحصدون؟»^(١).

٦. لهو القلب عند الغافلين.

فقد قال -تعالى: ﴿لَا هَيْبَةَ قُلُوبِهِمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ أَفْتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

حيث إن هذه الآية تبين حال الغافلين من الناس، لاهية قلوبهم، وبأنهم يصدون عن الحق بالتناجي فيما بينهم بسرية متناهية^(٢).

ثانياً: الآثار الأخروية:

إن للغفلة آثاراً كبيرة على من يغرق في وحلها في الآخرة، يوم لقاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

فقد بينت تلكم الآيات أن الذي يغفل عن لقاء الله تعالى، ويركن إلى الدنيا ويرضى بمتاعها الزائل، فإن بيته الخالد يوم القيامة سيكون النار، وهذا بما كسب قلبه وقوله وعمله، فالغافلون هم من يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد^(٣)، ومن هذه الآية يتبين أن من آثار الغفلة في الآخرة الدخول في النار.

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤٦٩/٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ٤٨٥/٢.

(٤) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان ١/٥٠٠.

منهج القرآن الكريم في علاج الغفلة

إن القرآن الكريم لا يذكر ذنباً ولا معصية ولا مرضاً قلبياً إلا ويذكر العلاج الكافي والمناسب له، وإن الغفلة مرض يكاد يفتك بمن أصيب به، واستحكم قلبه وعقله وحياته، وعند المتابعة في آيات القرآن الكريم يتضح أنها عالجت ذلك المرض القاتل من خلال أمور عديدة، أهمها:

١. ذكر الله تعالى وعبادته.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۗ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۗ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٤-١٦].

فالله تعالى يقول لنبينا موسى عليه السلام: إنني أنا الله لا معبود بحق إلا أنا فأطعني وعبدني عبادة لا تنساني أبداً من خلالها، والمقصود الإقامة والمكث الأبدي على تلك الصلاة وتلك العبادة، ثم التذكير بالساعة؛ للتذكير بالعاقة فيما إلى نار وإما إلى جنة، فلا يحرفنك يا موسى عليه السلام الذي لا يصدق إتيانها، اتباعاً لهواه، فهو الرديُّ إلى الهاوية^(١).

ولا شك أن هذا الذكر الأبدي والإقامة الدائمة على الصلاة، والتذكر الدائم للساعة

وما فيها من أهوال، كل ذلك يحصن الإنسان المسلم من الغفلة.

٢. التوكل والتفكير والتدبر.

قال تعالى: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ قَوْنًا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فإن مبدأ التفكير في خلق السماوات والأرض وما فيها من آيات كونية دالة على قدرته -جل جلاله-، واختلاف الليل والنهار، وما ينتج عن ذلك من فصول السنة وتغير المناخات، إن كل ذلك معجزات دالة على وجود الله تعالى، ومن ثم يصطحب الإنسان ذلك التأمل في تلك المخلوقات؛ ليعيش مع كمال الخوف مع كمال الحب لله تعالى، وإن الله تعالى قد وصف من يكون من المتفكرين في مخلوقات الله تعالى بأنهم أصحاب العقول النيرة^(٢).

كيف لا؟! وهم الذاكرون لله تعالى بشتى أنواع الذكر ومزيد التوكل على الله تعالى حق توكله، والمتفكرين في خلق السماوات والأرض فيحملهم ذلك على الخوف من الله تعالى، ربنا ما خلقت هذا

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣٤١/١.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣٩١/٢.

تعالى (١).

٤. اليقظة والحذر، والعلم والعمل.

قال تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

فالله تعالى ينادي المؤمنين بأحب النداءات، وذلك بوصفهم مؤمنين، فيقول: يا من آمنتم بي وصدقتموني، احذروا واحترزوا من عدوكم، ولا تمكنوه من أنفسكم؛ فخذوا السلاح والعدة لقتال عدوكم (٢).

ولا شك أن هذا يتطلب خبرة علمية وعملية، ومن قبل ذلك يقظة بالغة، وقبل وبعد كل شيء اصطحاب معية الله تعالى، فإن من يفعل كل ذلك فقد نجا من الغفلة التي هي نذير عقاب الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

التفكير، الذكر، العبرة، اللعب، اللهو، النسيان

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّي بن أبي طالب ٤/٣٠٦٦.

(٢) انظر: لباي التأويل، الخازن ١/٣٩٨.

باطلاً، ننزهك يا ربنا، وأنت غني عن تنزيهنا لك، فأجرنا يا ربنا من النار، ولا شك أن هذه المشاعر تجعل من المسلم أنموذجاً تطبيقياً لهدي القرآن؛ فيجتنب الغفلة التي ذمها الله تعالى، والتي هي سبب دخول النار وقبل ذلك غضبه عز وجل.

٣. صحبة الصالحين ومجالسة الذاكرين.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فإن كلا الجنسين من المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، والمؤمنات المصدقات بالله ورسوله، ولاؤهم جميعاً مبني على الأمر بالمعروف الذي فيه تعاون على الخير لأجل رضا الله تعالى، وأيضاً على النهي عن المنكر الذي فيه تعاون على اجتناب المنكر، وعلى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن من تكون حاله كذلك، فإنه يبقى متصللاً بالله تعالى، كثير الذكر له جل جلاله، متجنباً الغفلة بكافة أنواعها وأسبابها، وهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المتصفون بذلك يستحقون رحمة الله

